فِي رِحَابِ الكِتَابِ

مُلَخَّصٌ جامعٌ لكتاباتِ الدُّكتورِ: فاضلٍ السَّامرائيِّ – حَفظه الله –

جَمعُ وإِعدادُ:

عُمر ياسر الشَّافعى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمدُ لله بَديعِ السَّماواتِ والأَرَضينَ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى الُمرسلِ بَيانًا وَهُدًى للخلقِ أَجمعينِ ، وَعلى آلِه وأَصحابِه الُمشَبَّهينَ بالنُّجومِ فِي الاهتداءِ وبالأَعلامِ فِي الاقتداءِ وَعلى مَن تبِعَهم بإِحسانٍ إِلى يَوم الدِّينِ **وبعدُ:**

فإِنَّ القُرآنَ الكريمَ لَم يَزَل مُنذُ نَزل مَحَطَّ أَنظارِ الفُضلاءِ وَمناطَ اشتغالِ العلماءِ وَمصدرَ ذُهولِ البُلغاءِ وَإِلهامِ الفُصحاءِ ، وَحِرزًا ذاخرًا بالدُّررِ لا يُملكُ مِفتاحَه إِلَّا مَن أُوتي حُسنَ القريحةِ وَملكةَ التَّبحُّرِ فِي مُحيطِ العَرَبيَّةِ ، وَقد انكبَّ أَهل العلمِ قَديمًا وَحديثًا على هَذا السِّفرِ الُمبارَكِ يَلتمسونَ سَننَه وَيستخرجونَ مِن مبانِيه الفوائدَ وَمن معانِيه العجائبَ الفرائدَ وَصَنَّفوا فِي ذلكَ الكُتبَ الكَثيرةَ ، فمنهم الُمطيلُ وَمنهم الُمقتصدُ ، وَكلٌّ أَبلى فِي خِدمة هَذا الكتابِ وَنشرِ عِلمه بَينَ النَّاسِ بلاءً حَسَنًا ، وَلَّما طالَ الأَمَدُ على النَّاسِ وَكلَّتِ الِهمم احتاجَت إِلى مَن يُبَسِّطُ لَها العلمَ وَيدنِّي ظِلالَ مَسائلِه وَيُذللُ قَطوفه لَلأَلبابِ ، وقد قَيضَّ اللهُ لذلكَ طائفةً مِن أَهل الفَضلِ فِي هَذه الأَزمانِ ، وَمن أَشهر هؤلاءِ ، وأَكثرهم فَضلًا على الُمتعلِّمينَ فضيلةُ الدُّكتورِ أَبو مُحَمَّدٍ فاضلُ بنُ صالحٍ السَّامرائيُّ – حَفظِه الله – الَّذي كَان يُقَدِّمُ برنامجَ **لمسات بيانية** ، حَيثُ يتناول التَّفسيرَ من النَّاحيةِ البيانيَّةِ البلاغيَّةِ بأسلوبٍ يَسيرٍ دونَ غُموضٍ فِي العباراتِ والشَّرحِ ، وَقد حازَ هَذا البرنامجُ إِقبالًا شَديدًا مِن العلماءِ وَالطُّلَّابِ والعوامِّ ،

فَهو بلا جَرَمٍ مُجَددٌّ مِن مُجددِّي التَّفسيرِ فِي هَذا العَصرِ ، وَقد فَتح اللهُ على الدُّكتورِ من أَبوابِ القُرآنِ ما فَتحَ ، وَأَفاضَ عليه مِن معينِ أَسرارِه ما أَفاضَ ، فَفرَّغَ الدُّكتورُ مَا جَمَع من العلمِ فِي بِضعِ مُصَنَّفاتٍ ، مِنها ما هُو على نَسقِ كُتبِ التَّفسيرِ ، حَيثُ يَعمدُ إِلى سُورةٍ أَو بِضعِ آياتٍ فَيُبَيِّنُ ما فِيها من الَمعانِي والبلاغةِ واللُّغةِ مُستشهدًا بِأَقوالِ مَن سَبقَ من الُمفَسرِّينَ الُمعتنينَ بِهذا المجالِ كالزَّمخشريِّ والرَّازِيِّ وَغيرهما ، وَمنها مَا كانَ على نَسَقِ السُّؤالِ والجوابِ ، وَقد وَددتُّ لَو أَنَّ كُلَّ ذلكَ جُمِعَ فِي مُصنَّفٍ واحدٍ ، فآثرتُ تَحقيقَ ذلكَ فِي هذا الكتابِ الَّذي بَينَ يَديكَ ، وبالله التَّوفيق

عُمر ياسر الشَّافعي

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

- ﴿ الحَمدُ لله ﴾، الحَمدُ: ثَناءٌ عَلى المَحمودِ بما فِيه من الجَميلِ الاختياريِّ مَع المَحبَّةِ والتَّعظيمِ

وَالنُّكتَةُ فِي إِيثارِه عَلى المَدحِ مِن ثلاثةِ أَوجُهٍ:

١- الحَمدُ لا يَكونُ إِلَّا عَن حُبٍّ وإِجلالٍ للمَحمودِ ، وَالمَدحُ لا يَلزمُ مِنه ذلكَ ، بل قَد تَمدحُ شَخصًا تَمَلُّقًا أَو عَن خَوفٍ

٢- الحَمدُ لا يَكونُ إِلَّا للحيِّ العاقلِ ذِي الصِّفاتِ الحسَنةِ ، والمَدحُ يَكونُ للحيِّ وَغيرِه ، فقد تَمدحُ لُؤلؤَةً أَو غَزالةً ولكن لا تَحمَدهُا

٣- الحَمدُ لا يَكونُ قبلَ الإِحسانِ بل بَعدَه فَيكونُ عنِ استحقاقٍ ، أَمَّا المَدحُ فقد يَكونُ قبله استجلابًا للعطاءِ

وَالسِرُّ فِي إِيثارِ الحَمدِ على الشُّكرِ مِن وَجهينِ:

أَوَّلُها: أَنَّ الحمدَ يَكونُ سَواءٌ وَصلكَ خَيرٌ من المَحمودِ أَم وَصلَ غَيرَكَ بخلافِ الشُّكرِ

والآخرُ: أنَّ الحمدَ يَكونُ عَلى النِّعمةِ وَعلى الصِّفاتِ الحَسَنةِ ، فإنَّك لا تَشكرُ كَريمًا لمِجرَّدِ صِفة الكَرَمِ فيه بل تَشكُرُه إِذا أَوصلَ لك نَفعًا ، ولكن قَد تَحمَده عَلى كَرَمِه وإِن لم يَصلْكَ مِنه شَيءٌ

ثُمَّ إِنَّه عَبَّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ دُونَ الفعليَّةِ ، وبيانُ نُكتةِ ذلكَ من خَمْسَةِ أَوجُهٍ:

١- أَنَّ قولكَ (أَحمدَ اللهَ – نَحمدُ اللهَ) إِخبارٌ عَنك أَنتَ ومن مَعكَ ، ولا يَلزمُ منه أَنَّ غيرَكم يَحمدُه ، فكانَ الدَّالُّ على عُمومِ حَمدِه – تعالَى – أَولَى

٢- أَنَّ الجُملَة الفعليَّةَ مُقَيَّدَةٌ بزمنٍ يَنتهي بانتهاءِ فاعلِها ، وأَمَّا الاسميَّةُ فدلالَتُها الثُّبوتُ والدَّوامُ ، فهو – جلَّ وعلا – محمودٌ قبلِ حَمدِ الحامِدينَ وَثناءِ العالَمِينَ

٣- أَنَّه لا يَلزمُ مِن الجملةِ الفعليَّةِ كَونُ المَحمودِ مُستَحِقًّا للحمدِ ، لإنَّها إِخبارٌ عن فِعلٍ يَفعلُه المُتكلِّمُ لاعتقادٍ عِنده ، وَأَمَّا الاسميَّةُ فتدلُّ على استحقاقِه تعالَى للحمدِ وَثبوتِه له

٤- أَنَّه لَمَّا كانَ الحمدُ ذِكرًا كانَ عِبادةً قلبيَّةً ، إذا قلتَ (أَحمَدُ اللهَ) وَقلبُك غافلٌ فقد كَذَبتَ ، وأَمَّا الجُملةُ الاسميَّةُ فلا يَدخلُها تَكذيبٌ ، لأَنَّك تُخبرُ عن استحقاقِ اللهِ للحمدِ ، لا عَن فعلِك أَنتَ

٥- ثُمَّ لَمَّا كانَ الحَمدُ مُتَضَمِّنًا مَعنى الإجلالِ والمحبَّةِ والتَّعظيمِ كانَ مُشرَبًا دلالةً إِنشائيَّةً بالأَمرِ لِتعظيمِ اللهِ – سُبحانَه – وإِجلالِه وَمحبَّتِه ، والمَدحُ خَبَرٌ مَحضٌ

وَوجُه العدلِ بالخبرِ عَن الأَمرِ واحدٌ:

وهوَ: أَنَّ قولَك (احمَدوا اللهَ) لا يَلزمُ مِنه أَنَّ المُخاطبَ مُقتنعٌ بأمرِك له ، فقد يَفعلُه مَع عَّدم مُواطءةِ قلبِه للسانِه ، بخلافِ الجملةِ الاسميَّةِ

وَوجه إِيثار التَّعريفِ على التَّنكيرِ واحدٌ:

وَهو: أَنَّ التَّعريفَ بـ(ال) يَحتملُ مَعنى العهديَّةِ فيكونُ المعنَى : إِنَّ الحمدَ المعهودَ بينكمْ هو للهِ ، وكذا يحتملُ الجنسَ على سبيلِ استغراقِ جِنسِ الأَحمدةِ ، فيكونُ المعنَى : أَنَّ الحمدَ كلَّه للهِ ، وكلا المعنيينِ مُرادٌ

وَقد تَركَ التَّوكيدَ بـ(إِنَّ) لأمرينِ:

أَوَّلُها: أَنَّ المَقامَ ليسَ إِثباتًا لمترددٍ أَو رَدًّا عَلى مُنكرٍ ، بلْ إخبارٌ لِتيقَّنٍ مُؤمنٍ ، فَعدمُ التَّوكيدُ هو اللاَّئقُ بالمقامِ

والآخرُ: أَنَّ إِدخالَ (إِنَّ) عَلى مَا يَحتملُ الخَبَرَ والإِنشاءَ يَسلبُه مَعنى الإِنشاءِ ، فإِنَّك إذا قلتَ (قالَ زَيدٌ – رَضي اللهُ عنه –) احتملَ الخبرَ والدُّعاءَ ، فإنْ أَدخلتها سَلبتَ معنَى الإِنشاءِ ، وَقصرتَ الجملةَ على الخَبَريَّةِ

وَإِنَّما لم يُقدِّمِ المُستحقَّ للحمدِ لأمرينِ :

أَوَّلها: أَنَّ في ذلكَ مَعنى إِزالةِ الشَّكِّ من كَون الحمدِ غَيرَ مُختصٍ باللهِ ، وَليسَ المقامُ مقامَ إِزالةِ شَكٍّ فالمُخاطبونَ مُؤمنونَ بذلكَ

والآخرُ: أَنَّ في عَدمِ الاختصاصِ تَلويحًا بِأنَّ الحمدَ في الدُّنيا يَكونُ للنَّاسِ أَيضًا وليسَ للهِ وَحده ، فكَأنَّه يأمرُ بإيتاءِ كُلِّ ذِي فَضلٍ فَضلَه.

وأتى باسمِهِ العَلَمِ دُونَ غَيرِه ، وَنكتَةُ ذلكَ من ثلاثةِ أَوجُهٍ:

١- أَنَّه لو قالَ (الحَمدُ للعالِمِ) أَو غَيرَها مِن صِفاتِه ، أَفادَ أَنَّه استحقَّ الحمدَ لهذه الصِّفَةِ فقط ، ولكنَّه مُستحقٌّ للحمدِ لأَنَّه اللهُ الجامِعُ للصِّفاتِ العُلَى والأَسماءِ الحُسنى – جَلَّ جلالُه –

٢- أَنَّ الإتيانِ بِوصفٍ غَيرِ اسمِهِ العلَمِ لا يُفهِمُ أَنَّه هوُ المَقصودُ بالحمدِ صراحةً ، فإِنَّ (القدير – القَيُّوم – الحَيُّ ....) تُطلقُ على بَعضِ خلقه كذلكَ ، فأَتى بما يَدلُّ على أَنَّه هو – سُبحانَه – المقصودُ بالحمدِ وحده هُنا

٣- أَنَّ هذا الاسمِ – على أَشهرِ الأَقوالِ – مُشتقٌّ منَ (أَلَه) أَي: عَبَد ، وَلَمَّا كانَ الحَمدُ عِبادةً قلبيَّةً هِي الذِّكرُ ، لائمَ ذلكَ المقامَ

- ﴿رَبِّ العَالِمِينَ﴾ الرَّبُّ: السَّيدُّ المالكُ المُرَبِّي القائمُ على شُؤونِ عبادِهِ وَخلقِه ،

والعالمونَ: أَصنافُ الخلقِ من الكُلَّفينَ وغيرِهم ، وَفي جَمعه بالواوِ والنُّونِ تَغليبٌ للعقلاءِ ، وَسببُ اختيارِ هذا الجمعِ دونَ (العوالِمِ) واحدٌ:

وهوَ: مَناسبةُ مقامِ الفاتحةِ ، مِن ذكرِ العبادةِ والاستعانةِ وَطلبِ الهدايةِ وَيوم الحِسابِ – وَكلُّ ذلكَ خاصٌ بالمكلَّفينَ – وَتقسيمِ النَّاسِ إلَى مُنعَمٍ عليهِمِ وَمغضوبٍ عليهم وَضالِّينَ

والسرُّ فِي التَّعبيرِ بالرَّبِ وإِضافَتِه للعالمينَ من أَربعَةِ أَوجُهٍ:

١- مُناسبةُ قولِه ﴿اهدِنا الصِّراطَ المُستقيمِ﴾ ، فإِنَّ الهِدايةَ هي أُولَى مهامِّ المُرَبِّي ، وَفيه إِشارةٌ إِلَى أَنَّ الواجبَ على المُربِّي – كالأَبِ والمُعلِّمِ والحاكِمِ – إِرشادُ مَن هو قائمٌ عليهم إِلى ما فِيه صلاحُهم مِن الأَخلاقِ السَّليمةِ والآدابِ الحَسَنةِ

٢- الرَّدُّ على اليهودِ والنَّصارَى الزَّاعمينَ أَنَّهم صَفوةُ الخَلقِ وَأَبناءُ اللهِ ، بل اللهُ رَبُّ الخلقِ جَميعًا

٣- الرَّدُّ على من زَعمَ أَنَّ المَخلوقاتِ بعد إِيجادِها غَيرُ محتاجةٍ لِمصلحٍ لها

٤- أَنَّ سُورةَ الفاتحَةِ هي أُمُّ القُرآنُ المُقدَّمِةُ لَمضمونِه ، المُهيئَةُ لقارئِه لما فِيه ، فَقولُه ﴿ رَبِّ العالمينَ ﴾ فيه شِقَّانِ :

الأَولُ: كلمةُ ﴿ رَبِّ ﴾ مَعناهُ الخالقُ للسَّماواتِ والأَرضِ ومالكُ ما فِيهما المُتصرِّفُ فيه

الثَّاني: إِضافته لـ﴿ العالَمِينَ ﴾ يُفيدُ معنَى هدايةِ المُكلَّفينِ بإنزالِ الشَّرائعِ وإِرسالِ الرُّسلِ ، لِيفصِّلَ ذلكَ فِي مَطلعِ الأَنعامِ فيقولَ ﴿ الحمدُ للهِ الَّذي خَلقَ السَّماواتِ والأَرضَ وجعل الظُّلُماتِ والنُّورِ ...﴾ فَذكرَ بِذلكَ مَظهرًا مِن مظاهرِ الرُّبوبيَّةِ على وَجهِ التَّفصيلِ ، وَقالَ فِي مَطلعِ الكَهفِ ﴿ الحمدُ للهِ الَّذِي أَنزل على عَبده الكتابَ ..﴾ وَهذا جانبُ الإِصلاحِ للعبادِ المَربوبينَ له وَقالَ فِي مَطلعِ سَبأ ﴿ الحمدُ للهِ الَّذي له ما فِي السَّماواتِ وما فِي الأَرض ﴾ وَذلكَ وَجهُ المُلكِ والتَّصرُّفِ ، وأَخيرًا قالَ فِي مَطلع فاطرٍ ﴿ الحمدُ للهِ فاطِرِ السَّماواتِ والأَرضِ جاعلِ الملائكةِ رُسُلًا ﴾ وَهذا أَيضًا مِن جوانبِ الإِصلاحِ والإِرشادِ للخلقِ ، وكلَّ ذلك تَفصيلٌ بعدَ إِجمالٍ لما فِي الفاحةِ ، لذا تُسمَّى (أَمَّ القُرآنِ)

- ﴿ الرَّحمنِ الرَّحيمِ ﴾

الرَّحمنُ: هو الممتلئُ بالرَّحمةِ ، والرَّحيمُ: مُتجددُ الرَّحمةِ

وَسرُّ الجَمعِ بَينهما:

هوَ: أَنَّه لو اقتصرَ على (الرَّحمنِ) لأَفهمَ أَنَّ رَحمتَه ثابتةٌ لكن لا تتجددُ لخلقِه ، فَيقَع فِي نَفسهم خوفٌ من زوالِها ، ولو اقتصرَ على (الرَّحيمِ) لأَفهمَ أَنَّ رحمتَه قد تتحوَّلَ ، فهي مِثلُ (الكريمِ – الخطيبِ) فقد حَصلَ منهما مَجموعينِ ما لا يَحصلُ من أَحدهما مُنفردًا

وَنكتُةُ ذِكرِ هَذينِ الوَصفين بَعد وَصفِ الرَّب :

أَنَّ: الرَّبَّ ينبغي أَن يتحلَّى بالرَّحمةِ العامَّةِ لرعَيَّته ، وَبالرَّحمةِ الخاصَّةِ للمحسنينَ منهم ، ولا يَحسنُ فِي حقِّ المُصلحِ أَن يَكونَ قاسيَ القَلبِ غَليظَ الطَّبعِ ،

- ﴿ مَالِكِ يَومِ الدِّينِ ﴾ يومِ الجزاءِ

وَقُرئَ فِي المُتواترِ ﴿ مَلِكِ ﴾ وَوجوهِ التَّفرقَةِ بَينهما سَبعةٌ:

١- أَنَّ المَالكَ له مِن صَلاحِيَّاتِ التَّصرُّفِ فِي مَملوكِه ما ليسَ للملكِ مِن بَيعٍ وَهبةٍ ، فكان بذلكَ أَظهرَ لاقتدارِه وَقهره وَسلطانِه - سُبحانَه -

٢- أَنَّ المالكَ للعبيدِ والمَلِكَ للرَّعيَّةِ ، والخلقُ عِيالُ الله وَعبيدُه وليسُوا رَعايَا له

٣- إِنَّ الرَّعيَّةَ يُمكنهم إِخراجُ أَنفسُهم مِن طاعةِ المَلِك باختيارِ أَنفُسِهم ، ولكنَّ العَبدَ المملوكَ ليسَ له حَقُّ اختيارِ نَفسِه

٤- المَلِكُ مأمورٌ بالعدلِ بَين رَعيَّتِه وَليسُوا مأمورينَ بِخدمتهِ ، والمملوكُ مأمورٌ بِخدمةِ مالِكه

٥- سُلطانُ المالِكِ أَدومُ ولا يُنزعُ مِنه وإن تَصرَّفَ بجورٍ وإِسرافٍ ، والملكُ محدودُ السُّلطانِ

٦- المالكُ أَعمُّ لأَنَّه يُضافُ إِلى الإِنسانِ والحيوانِ والجنِّ والجمادِ ، بخلافِ المَلِك

٧- المالكُ قد يَتعددُ مِن المكانِ الواحدِ ، فتجدُ في المدينةِ مالكينَ مع مُمتلكاتِهم ، ولكنَّ المَلكَ لا يَكونُ إِلَّا أَشرفَ هؤلاءِ ولا يُشاركُه فِي مُلكِه أَحدٌ .

والحاصلُ: أَنَّ قراءةَ ﴿ مالِك ﴾ أَمدحُ وأَرجَى ، لأنَّ من كانَ نُفوذُه واسعًا وَسُلطانُه كانتِ النُّفوسُ مُقبلةً عليه أَكثرَ ، وَقُصارَى ما يُرجوه الرَّعيَّةُ من الملِكِ أَن يَعدلَ بَينهم وَيُنصفَ ، وَهم يَرجونَ من المالكِ أَن يُطعمهم وَيُصلحَهم وَيُرَبِّيَهم ، وأَنَّها أَنسبُ لما قَبلها مِن ذكرِ الرَّحمةِ والرُّبوبيَّةِ للعالمينَ ، وإِضافتها لِيومِ الدِّينِ لتقليلِ هَولِه ، وأَنَّ قراءةَ ﴿ مَلِكِ ﴾ لِنفي أَن يَكونَ لأَحدٍ فِي هَذا مُلكٌ سِوى اللهِ - تَعالَى -

وَوجهُ إِضافة المُلكِ إِلى ﴿ يَومٍ ﴾ مَع أَنَّه مَعنويٌّ:

هُوَ: إِرادَةُ العُمومِ ، فإِنَّه - سُبحانَه - مالكٌ لمن فِيه ، ولما فِيه من الجزاءِ والحسابِ والثَّوابِ والعقابِ ، لا يَتكلَّمُ أحدٌ إِلَّا بإِذنِه ، ولا يَشفعُ فِي عَبيدِه مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نَبيٌّ مُرسلٌ ، فكانَ من إِضفاءِ الهَيبَةِ والوقارِ على هَذا اليومِ بسببِ هَذه الإِضافةُ شَيءٌ كَثيرٌ

والسَّببُ فِي العدولِ عن (يَوم القيامةِ) إِلى ﴿ يَوم الدِّينِ ﴾ مِن وَجهٍ واحدٍ:

وَهوَ: أَنَّ كلمةَ (الدِّين) تَحملُ مَعنَى الجزاءِ والحِسابِ وكَذا إِعلاءَ الدِّينِ بِظهورِ المؤمنينَ على الكافرينَ وَهذا هُو اللَّائقُ بِمقصدِ السُّورَةِ مِن ذكرِ أَصنافِ المُكلَّفينَ

ثُمَّ إِنَّ وُقوعَه بَعد الحمدِ أَحسنُ مَوقعٍ ، لأنَّ أَفادَ أنَّ اللهَ مَحمودٌ فِي مُلكِه وٌقضائِه بَين خَلقِه ، وذكرَ قَبلُ أَنَّه مَحمودٌ فِي رَحمتِه الذَّاتيَّةِ والفعليَّةِ الَّتِي لم تنقطِعْ ولن تَزولَ ، وَاستهلَّ ذلكَ كُلَّه بأَنَّه مَحمودٌ بربوبيَّتِه للعالَمِينَ ، وَذلكَ إِجمالٌ لِكلِّ صُور الأَحمدةِ وهو اللَّائقُ بـ (أُمّ الكتابِ)

- ﴿ إِيَّاكَ نَعبدُ وإِيَّاكَ نَستعينُ ﴾

ووجهُ تَقديمِ المفعولِ هو التَّخصيصُ كَمَا هو مَعلومٌ

وَسرُّ تكرارِه مِن ثلاثةِ أَوجُهٍ:

١- النَّصُّ على التَّخصيصِ فِي العبادةِ والاستعانةِ كليهما ، ولو اكتفيَ بِذكرِ الضَّميرِ مَع العبادة فقطْ مَثَلًا لم يَتعيَّنْ أَنَّ اللهَ هو المَخصوصُ بالاستعانةِ

٢- لَو قالَ ﴿ إِيَّاكَ نَعبدُ ونستعينُ ﴾ لاحتَملَ أَنَّه لا يُتقرَّبُ إِليه بِغيرِ العبادةِ والاستعانةِ مَجموعتينِ ، وَهذا غَيرُ صحيحٍ

٣- فِي تَكرارِه مَعنى التَّوكيدِ وشدَّةِ الاعتمادِ على الله

وَحذفُ المفعولِ مِن ﴿ وإِيَّاكَ نستعينُ ﴾ لأمرٍ واحدٍ:

١- لإفادةِ الشُّمولِ ، فهو – سُبحانَه – مُستعانٌ فِي كلِّ مُستعانٍ فيه مِن تَيسيرِ الأَرزاقِ وَكشفِ الضَّررِ وَالنَّصرِ على الأَعداءِ وَغيرِها

وَنونُ العَظمةِ ﴿ نَعبدُ – نستعينُ ﴾ السرُّ فِيها أَمرانِ:

أَوَّلُهما: بَيانُ مَكانةِ الجماعةِ فِي الإِسلامِ ، فَصلاةُ الجماعةِ خَيرٌ مِن صلاةِ الفردِ ، والحجُّ شَعيرةٌ يَجتمعُ فيها المُسلمونَ مِن كُلِّ الأَمصارِ ، والصَّومُ يَشتركُ فيه الغَنيُّ والفَقيرُ ، فلا شَكَّ حَسنَ أَن يَذكرَ فِي السُّورةِ الَّتِي هي أُمُّ القُرآنِ وَركنٌ مِن أَركانِ الصَّلاةِ فَضلَ الجماعةِ

والآخرُ: إِظهارُ التَّواضُعِ ، فإِنَّ العَبدَ إِذا وَقف بَين يدي رَبِّه استصغرَ أَن يَقولَ (إِيَّاكَ أَعبدُ) بَل ضَمَّ إِليه إِخوانَه المُسلمينَ ، وَهذا مُناسبٌ لَمَا تَقدَّمَ من بَيانِ فَضلِ الجماعةِ ، فإِنَّ المُسلمينَ يُقَوِّي بَعضُهم بَعضًا على العبادةِ

ووجهُ اقترانِ العبادةِ بالاستعانةِ أمرانِ:

أَوَّلُهما: أَنَّ العبدَ لا يَقدرُ على عِبادةِ الله حَقَّ عِبادَتِه إِلَّا بالاستعانةِ بالله ، وَالإِقرارُ بهذا المعنَى يَخلَع من قلبِه الرِّياءَ والمُفاخرةَ وَيُطَهِّرُه مِن الكِبْرِ

والآخرُ: الجَمعُ بَين ما يَطلبُه العبادُ من الله وَما يَتقرَّبونَ به إِليه – سُبحانَه –

وأمَّا تَقديمُ العِبادةِ فسرُّه من أَربعةِ وجوهٍ:

١- أَنَّ العِبادةَ غايةُ الخَلقِ ، والاستعانةُ وَسيلَتها ، وَالغايةُ مُقَدَّمةٌ لِعظَمِ شأنِها

٢- العِبادةُ حَقُّ الله وَقِسمُه ، والاستعانةُ فِعلُ العبدِ ، وَحقُّ الله مُقَدَّمٌ

٣- لَمَّا قَدَّمَ فِي مَطلعِ السُّورةِ اسمَ (الله) الدَّال على العُبوديَّةِ ، وأَخَّرَ اسمَ (رَبِّ) نَاسبَ أَن يَذكرَ مِثلَه هُنا ، لأنَّ الاستعانةَ وَطلبَ التَّوفيقِ من مظاهرِ الرُّبوبيَّةِ

٤- أَنَّ ذِكرَ العبادةِ مُناسبٌ لما سَبقَ مِن ذكرِ قَهره وَسلطانِه – عزَّ وجلَّ – وَذكرُ الاستعانةِ مُناسبٌ لما سيأتِي بعده من طلبِ الهدايةِ والثَّباتِ على الدِّينِ

وَمعلومٌ أَنَّ فِي الآيةِ التفاتًا مِن الغَيبةِ إِلى الخطابِ وَله فائدةٌ عامَّةٌ وَأَربعةٌ مَخصوصةٌ بالمقامِ:

فالفائدةُ العامَّةُ: تَنبيهُ السَّامِع واستجلابُ ذِهنه بتَغييرِ الأُسلوبِ ، لأنَّ النَّمَطَ الواحدَ فِي الكلامِ يُمَلُّ منه

وأمَّا فوائدُ المقامِ فها هيَ:

١- أَنَّه لَمَّا ذكرَ استحقاقَه للحمدِ وَعددَّ نِعمَه وَفضلَه من رُبوبيَّتِهِ للعالَمِينَ وَلُطفِه بهم وإِصلاحِه لهم وَقيامِه على هِدايتهم ، وَرحمتِه العَامَّةِ بعمومِهم وَالخَاصَّةِ بأَولِيائِه منهم ، وَذكرَ أَنَّه المَالكُ المَلكُ الواحدُ فِي سُلطانِه شَدَّ ذلكَ القُلوبَ لِمناجاتِه شَدًّا فنادَت بالخطابِ لوجهه – سُبحانَه

٢- أَنَّ اللَّائقَ بالثَّناءِ أَن يَكونَ غيبةً وهو أَكملُ فيه ، واللَّائقُ بالدُّعاءِ أَن يَكونَ خِطابًا ، وَفِي ذلكَ إِشارةٌ إِلى أَنَّ الإِنسانَ لا يَنبغِي أَن يَتحرَّى المَدحَ أَينما حَضرَ ، بَل لا يَكترِثْ به

٣- بَيانُ أَنَّه سُبحانَه فِي كُلِّ مكانٍ ومع كلِّ عَبدٍ **بِسمعِه وَعلمِه** ، وَهذا مِمَّا يُعلمُ به استحقاقُه للعبادةِ ، أَلَم تَرَ كَيفَ قالَ إِبراهيمُ ﷺ ﴿ لَا أُحبُّ الآفِلِينَ ﴾

٤- الطَّلبُ من الحَاضرِ أَقوى من الغائبِ

- ﴿ اهدِنا الصِّراطَ المُستقيمَ ﴾

سببُ اختيارِ فعل الهدايةِ دُون الإِرشادِ ، هو تعددُ معانِي الهدايةِ:

١- التَّثبيتُ على الهُدى

٢- الزِّيادةَ فيه

٣- الإِثابةَ بسببه

فكانَ أَولَى مِن (أَرشدنا الصِّراطَ المُستقيمَ)

ثُمَّ إِنَّ فعلَ الهدايةِ قد يَتعدَّى باللَّامِ وإِلَى وَقد يُعدَّى بِنفسِه ، ووجهُ تعديته بِنفسه ثلاثةُ أُمورٍ:

١- أَنَّ تَعديته بِنفسه تُستعملُ مع من كانَ في الصِّراطِ ومن لم يَكن فيه ، فكأنَّ الدَّاعيَ يَعمُّ بطلبِ الهدايةِ من كانَ فيها مِن أَهلِ السُّنَّةِ ، ومَن كانَ فيه ولكنَّه ضَلَّ وابتدَع

٢- وَكذا يَعمُّ من كانَ غَيرَ مُسلمٍ بأَنْ يَهديه اللهَ وَيثيبَه الحُسنى باتِّباعِ الحَقِّ ثُمَّ بِتعريفِه معالمَ الإِسلامِ وَتعاليمَه

٣- أنَّه لَمَّا كانَ المُتكلِّمونَ من الحامدينَ لائَم ذلكَ أَن يأتِيَ بما يدلُّ على طلبِ استمرارِ الهدايةِ ، ولو قالَ (إِلى صراطٍ مُستقيمٍ) لَم يُفد ذلك

وَعدمُ تَقيدمِ المفعولِ لأمرٍ

وَهوَ: أَنَّه لا يَصحُّ فِي العقلِ أَن يهديَ اللهُ قومًا دونَ قومٍ ، بل هو يَهدي من يشاءُ ويضلُّ من يشاءُ

والسِّرُّ فِي التَّعبيرِ بالجمعِ في قوله ﴿ اهدنا ﴾ من أَربعة أَوجهٍ:

١- مُناسبةُ مَا سَبقه من الحمدِ الجماعيِّ والثَّناءِ الجماعيِّ وطلبِ العبادةِ والاستعانةِ الجماعيِّ ، فَحسنُ أَن يَكون طَلبُ الهُدى جماعيًّا

٢- بَيانُ وجوبِ مَحبَّةِ المُسلمِ لأخيهِ مَا يُحبُّ لِنفسه ، فلا يَخصَّ نَفسه فِي الدُّعاءِ ، والمُسلمُ الوحيدُ بَين الضَّالِّينَ يُخشى عليه أَن يتواطأَ عليه أَهلُ الباطلِ فَيُفسدوا دِينه ، وإِنَّما يأكلُ الذِّئبُ من الغنَمِ القاصِيةَ

٣- أَنَّه كُلَّمَا كَثُرَ الدَّاعونَ كان دُعاؤهم للإِجابة أَقربَ

٤- مُناسبةُ ذكرِ الرُّبوبيَّة الَّتِي من مظاهرِهِ التَّفضُّلُ بالهدايةِ وإِرسالِ الرُّسلِ ، والرَّحمةِ الَّتِي مِن صُورِها الإِنعامُ بنعمةِ الإِسلامِ ، والعبادةِ الَّتِي من لِقبولِها شَرطانِ:

١: الإِخلاصُ : وَهو مُستنبطٌ من تَخصيصِ العبادةِ بالله وَطلبِ الاستعانةِ منه

٢: مُوافقةُ السُّنَّةِ : وَهو المُستنبطُ من طلبِ الهدايةِ والتَّبصرةِ بمعالمِ الصِّراطِ المُستقيمِ

والسِّرُّ فِي اختيارِ كلِمةِ ﴿ الصِّراطِ ﴾ مِن وَجهٍ واحدٍ:

وَهوَ: أَنَّ الصِّراطَ مُشتقٌّ مِن (الاستِرَاطِ) بمعنَى الابتلاعِ ، وَهذا دالٌّ على أَنَّه وَاسعٌ رَحْبٌ لا يَضيقُ بِسالكيهِ

وَقد نَبَّهوا بأَنَّ القُرآنَ يَستعملُ الصِّراطَ بمعنى الإِسلامِ الَّذي هو التَّوحيدُ الخالصُ ، وَيستعملُ السَّبيلَ بِمعنَى الإِسلامِ وبمعنَى الشَّرائِع والعباداتِ ، وهو وجيهٌ ، لأنَّ السَّبيلَ من (أَسبَلَ) فكأَنَّه فَرعٌ عن غَيرِه ، والصِّراطُ هو الأَصلُ

والإِتيانُ به مُفردًا لأَمرٍ واحدٍ:

وَهوَ: بَيانُ أَنَّ الحقَّ لا يَتعددُ ولا يُحابَى فِيه ، وَهذه الآيةُ رَدٌّ صَريحٌ فِي وُجوهِ مُرَوِّجي تَقاربِ الأَديانِ – نَعوذُ بالله من الضَّلالِ –

وَالملاحظُ أَنَّ السَّبيلَ قد يُجمعُ بخلافِ الصِّراطِ ، وذلك لبيانِ أَنَّ أَبوابِ الإحسانِ في الإِسلامِ كَثيرَةٌ ولكنَّ أَصلَه واحدٌ لا يَقبلُ اللهُ غَيرَه

والنُّكتةُ مِن وَصفه للصِّراطِ بالاستقامةِ من أَربعةِ أَوجهٍ:

١- بَيانُ أَنَّه أَقصرُ وَأَيسَرُ الطُّرُقِ إِلى الخَيرِ والحقِّ ، وَقد قرَّر أَهلُ الهندسةِ أَنَّ الخطَّ المُستقيمَ بَين نُقطتينِ هو أَقصرُ الخطوطِ

٢- أنَّ المُستقيمَ بَيِّنٌ واضحٌ لا يزيغُ عنه إِلَّا هالكٌ ، والمُعوَّجُ يشتبهُ على الإِنسانِ

٣- المُستقيمُ قَطعًا يُوصلُ إِلى الهَدفِ ، والمُعوَّجُ قد لا يُوصلُ إِليه

٤- المُستقيمُ لا يَعتريه تَبديلٌ ولا تَغييرٌ ، بخلافِ المُعْوَجِّ

- ﴿ صِراطَ الَّذينَ أَنْعمتَ عليهم غَيرِ المَغضوبِ عليهم ولا الضَّالِّينَ ﴾

ووجهُ بلاغَتِها **حُسنُ التَّقسيمِ**

فالإِنسانُ إِمَّا سَعيدٌ – وَهو السَّالكُ لدينِ اللهِ وَالمُلازِم لِهدي النَّبيِّ ﷺ – وإِمَّا شقيٌّ ، وأهلُ الشَّقاوةِ صِنفان:

الضَّالُّونَ: وَهم مَن عَملوا بِغيرِ عِلمٍ كالنَّصارَى وَأَتباعِ أَهلِ البِدَعِ وَغيرِهم

المغضوبُ عليهم: وهم عَلِموا وَلم يَعملوا بِعلمهم كاليهودِ – قاتلهمُ اللهُ – وَأَئمَّةِ البدعِ وَغيرِهم

وَفي هذا أَيضًا إِشارةٌ إِلى أَنَّ مدارَ اعتلالِ القُلوبِ على أَصلينِ: **الجهلِ وفسادِ القَصدِ**

فالتَّمسُّكُ بِصراطِ اللهِ ومنهاجِ النَّبيِّ ﷺ شِفاءُ الجهالةِ ،

وأمَّا داءُ فسادِ القصدِ فقد مرَّ في قولِه ﴿ إِيَّاكَ نعبدُ وإِيَّاكَ نستعينُ ﴾ ، فهي تنتشلُ من القُلوبِ الكبرَ والرِّياءَ ، وَتكسبُها خُضوعًا للهِ وإِنابةً إِليه فَتورثها حُبَّ العملِ بما علمتْ من الحقِّ

والفائدةُ من التَّعبيرِ بالماضِي في قولِه ﴿ أَنعمتَ ﴾ ثلاثَةُ أُمورٍ:

١- ذِكرُ تَفضُّلِه على من سَبقَ من الأَنبياءِ والمُرسلينَ وأنَّ الصِّراطَ المقصودَ هو صِراطُهم ،

٢- بَيانُ فَضلِ السَّلَفِ الصَّالحِ ، ووجوبِ التماسِ العلمِ منهم ، وتحرِّي أَقوالِهم وَتفهُّمها والعملِ بها وَرَدِّ من يُخالفُها وإِبغاضِ من يُبغضُهم ،

٣- الإِشارةُ إِلى أنَّ طريقَ الإِسلامِ مَسلوكٌ منذُ الأَزَلِ ولا يزالُ مسلوكًا ، فهو عَزيزٌ أَبَدًا

والسِّرُّ فِي التَّعبيرِ عن الصِّنفين بالاسمِ ﴿ المغضوبِ عليهم – الضَّالينَ ﴾ دونَ المُؤمنينَ مِن سِتَّةِ أَوجهٍ:

١- أَنَّ النِّعمةَ تُقَدَّرُ بِقدرِ صاحبِها ، ولَمَّا استهلَّتِ السُّورةِ بالثَّناءِ لائمَ ذلكَ أَن يُذكرُ المُنعم – سُبحانَه – لِيزدادَ فِي القُلوبِ تَعظيمًا

٢- أَنَّه لو قَالَ (الَّذينَ غضبتُ عليهم ...) لاحتملَ أَنَّه وحدَه الغاضبُ عليهم وليسَ كذلكَ ، بل إِنَّ الكافرينَ لا يجدونَ لهم يوم القيامة وليًّا ولا نَصيرًا ، وَلا شَفيعًا ولا صاحبًا حَميمًا ، فهم مَغضوبٌ عليهم من اللهِ ومن أوليائِه من الملائكةِ والأَنبياءِ والمُؤمنينَ ، فكانَ ذلك أَشَدَّ تَوبيخًا لهم

٣- أَنَّ فِي التَّعبيرِ بالاسمِ إِطلاقًا لزمن الغَضبِ والضَّلالةِ ، فهم ملازمونَ لما هم فِيه من الخِزي والهوانِ في الدُّنيا والآخرةِ

٤- أنَّه لا يَحسُن فِي مقامِ الرَّجاءِ وَطلبِ الهدايةِ من المُنعمِ ذِكرُ غَضبه وإِضلالِه لأقوامٍ آخرينَ ، فالأَولى بالمقامِ حاذِفُ الفاعلِ فيهما

٥- أنَّ فِي تَعيينِ المُنعمِ مَدحًا للمنعَمِ عليهم ، كقولكَ (هَذا الَّذي أَكرَمه السُّلطانُ وأَغدقَ عليه من العطايا والخيراتِ ...)

٦- أنَّ السُّورَة لَمَّا بُدئت بالحمدِ المُطلقِ غَيرِ المُقَيَّدِ بزمنٍ ، خُتمت بالغَضَبِ المُطلقِ غَيرِ المُقَيَّدِ بزمنٍ

والسِّرُّ فِي الفَصلِ بـ(لا) مِن وجهٍ واحدٍ:

وهوَ: النَّصُّ على أَنَّ المُسلمينَ يَبرؤونَ ممن جَمع الجهلَ وفسادَ القَصدِ معًا ، وممنَ حَصَّلَ أَحدهما ، وَنظيرُه الفَرقُ بين قولكَ (لا أُحبُّ من بخلَ واستكبرَ) و (لا أُحبُّ من بخلَ ولا من استكبرَ)

وَتقديمُ الغضبِ على الضَّلالةِ سِرُّه من سِتَّةِ أَوجهٍ:

١- مؤاخذَةُ العالِمِ المُتَّبعِ لهواهُ أَشَدُّ من مؤاخذةِ الجاهلِ الضَّالِّ

٢- اليَهودُ – وهم المقصودُ بالمغضوبِ عليهم – أَقدم من النَّصارَى

٣- الإِشارةُ إِلى أَنَّ أوَّل مَعصيةً حدثت – وهي استكبارُ إِبليسَ – جَعلتْه من المغضوبِ عليهم وإِلى أَنَّ أَوَّلَ جريمةَ وقعت – وهي قَتل ابنِ آدمَ لأخيه – أَيضًا جعلته من المغضوبِ عليهم

٤- أنَّه لَمَّا قَدَّم الحمدَ والرَّحمةَ والإِنعامَ كانَ الغَضبُ والانتقامُ مقابلًا لذلكَ

٥- بَيانُ أَنَّ من جحدَ شَيئًا مِن علومِ هَذه السُّورة كتركِ حمدِ الله وإِثباتِ صفاتِه الحُسنى ، والتَّكذيبِ باليومِ الآخرِ ، وترك عبادتِه فتلكَ عاقبتُه

٦- بَيانُ أَنَّ رَحمتَه غلبت عَذابَه

***

فصلٌ

وقد جَمعتِ هذه السُّورةُ العظيمةُ من الآدابِ الكثيرَ ومنها:

١- عَدَمُ الإطالةِ فِي المُقَدِّماتِ ، والإِتيانُ بِمضمونِ الخطابِ فِيها بِصورةٍ مُجملةٍ

٢- استحسانِ أَداءِ الفَضلِ والمعروفِ لأهلِه ، وَذمُّ التَّملُّقِ والكَذبِ ، وقد جاءَ في الحديثِ " احثوا التُّرابَ فِي وجوهِ المَدَّاحينَ " بَينما ثَبتَ " من لم يَحمدِ النَّاسَ لم يَحمدِ اللهَ "

٣- بَيانٌ ما يَنبغي أَن يكونَ عليه المُرَبِّي – من أَبٍ ومُعلِّمٍ وحاكمٍ – من صِفات الرَّحمةِ ومحبَّةِ الخَيرِ لمن بين أَيديهم والسَّعي فِي إِصلاحِهم

٤- الحضُّ على التَّعاوُن فِي الخَيرِ والاجتماعِ على محبَّةِ اللهِ ، وأَنَّ قوَّةَ المُسلمينَ في اجتماعِهم

٥- التَّحذيرُ من داءِ الرِّياءِ والكبرِ ، وبيانِ علاجهما وهو الإِخلاصُ والاتِّباعُ

٦- استحسانُ أَن يَطلبَ المُسلم لأخيه ما يَطلبُ لنفسِه

٧- وجوبِ اتِّباعِ السَّلف الصَّالِح ، واستحبابُ ذكرِ مناقبهم وفضائِلهم ، وفضائلِ الصَّالحينَ من الأمواتِ والدُّعاءِ لهم

٨- التَّبرِّي من أَهل الكُفرِ والبِدعِ وَإِبغاضُهم فِي اللهِ

***

سُورَةُ البَقَرَةِ